

تمثيلات الهوية في الرواية الجزائرية

أ. شهرة بلغول

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

ملخص: تروم هذه الدراسة رصد تمثيلات الهوية الجزائرية في عدة نصوص روائية، والوقوف على تعدد أبعادها، نظراً للامتداد التاريخي للأمة الجزائرية في شمال إفريقيا والذي أسهم في تشكيلها من مكونات مختلفة، سواء على صعيد العرق أو اللغة أو الدين، في ظل استيعاب المكون الأمازيغي لبقية المكونات الثقافية المتفاعلة معه، وقد كشف التحليل عن وجود أنماط ثقافية عامة طبعت الذات الجزائرية بسمات خاصة تبعاً لخصوصية كل مرحلة تاريخية، كما واكبت تشكل مفهوم الهوية الذي يمتح من المعين الثقافي المتعدد ويرفض منطق الإقصاء الذي حاول البعض فرضه خلال سنوات التسعينات، لذا فالمقاربة النقدية لمفهوم الهوية ضرورة ملحة في ظل الأزمت التي تترص بالمجتمعات.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الأنا والآخر، التعدد الثقافي، التراث الأمازيغي.

Abstract: This study aims to monitor the representations of Algerian identity in several novels, and stand on the multiple dimensions because of the historical extension of the Algerian nation in North Africa, which contributed to the formation of different components, whether at the level of race, language or religion. In the light of absorbing the Amazigh component of the rest of the cultural components that interact with him. The analysis revealed the existence of general cultural patterns that characterized the Algerian self by special characteristics depending on the specificity of each historical stage. It also followed the formation of the concept of identity.

Keywords: identity, self and other, multiculturalism, Amazigh heritage.

العرض:

يعد مفهوم الهوية من أكثر المفاهيم إشكالية نظراً لما يتضمنه من مفارقة على صعيد المعنى، فبقدر ما يحيل على مبدأ الوحدة والاستمرارية فيما يتعلق بالسلمات المشكّلة للذات بوصفها كياناً جمعياً، يفتح على معنى الاختلاف والتحوّل إذا ما تعلق الأمر بالآخر الذي يعتبر وجوده شرطاً موضوعياً لضبط مفهوم الأنا، لذا فمقاربة مسألة الهوية لا تتم إلا في ظل عمليات التفاعل بين الأنا والآخر، وكما يرى فرانسوا غوزيو فإنّ سؤال الهوية ليس من أكون؟ بل من أكون بالنسبة للآخرين ومن هم الآخرون بالنسبة لي، وعليه فتصور الهوية لا ينفصل عن تصوّر الغيرية⁽²⁾.

يمكن مقارنة مفهوم الهوية من عدّة جوانب ذلك أنّه ينبغي التمييز بين الهوية الفردية (الشخصية) في مقابل الهوية الجماعية، دون أن ننسى أنّ المفهوم في حد ذاته يتشكّل من أبعاد كثيرة لا يمكن إقصاء أي منها أو تغليب أحدها على حساب البقية.

الهوية بين الفردية والجماعية :

ينبغي الإشارة بادئ ذي بدء إلى أنّ الهوية ليست معطى قبلياً جاهزاً وإنما تخضع لعملية تشكل مستمر عبر مسار طويل من الولادة إلى المراهقة وصولاً إلى الكهولة. يبدو مفهوم الهوية الفردية بسيطاً من الوهلة الأولى لكنه سرعان ما يكشف عن معطى مركب من خلال الدراسة والتحليل، إذ يحيل من ناحية على فكرة موضوعية تتلخص في أن كل شخص متفرد ومختلف عن الآخرين من خلال الجانب الوراثي والجيني، في المقابل يحيل على جانب ذاتي يتمثّل في شعور كل فرد بذاتيه وفردانيته، وهو شعور ذاتي في جانب وغيري في جانب آخر.

يطلق مفهوم الهوية على نسق من المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرّف⁽³⁾، وهي في مجملها سابقة في تشكّلها لوجوده الفعلي، فإذا لم تتطابق الذات معها لاحقاً كان عليها تدبرها،

² - Jean calaude, Ruano-borbalan : L'identité l'individu le groupe la société, édition sciences humaines, France, 1998. P2.

³ - اليكسي ميكشيلي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق، 1993، ص7.

في ظل تقديمها لفهم نقدي لمنظومة المعايير التي تدخل في تكوينها، وكمثال على ذلك نجد أنّ الفرد خلال مرحلة المراهقة يشعر بانفصاله عن هويته التي نشأ في ظلها، لذا يسعى لخلق هوية جديدة تظهر كمارسة من خلال رفضه لأغلب التصورات السابقة التي تحاول ضبطه ضمن إطار ثابت، الأمر الذي يجعل تشكل هذه الهوية متعدد الأبعاد ويخضع لمبدأ الحرية والاختيار، لكنها حرة مقيّدة بضوابط المحيط الاجتماعي، وعليه فمن الوهم تصوّر أنّ الهوية حتمية من ناحية وأحادية انعزالية من ناحية أخرى .

إنّ الإقرار بالبنية التعددية للهوية بمعنى أنها تتشكل من انتماءات متداخلة سواء تعلق الأمر بالعرق أو الدين أو الجغرافيا أو الطبقة والجنس لا ينفى تغليب المرء لأحد هذه الأبعاد على حساب البقية إذا تطلب السياق الاجتماعي ذلك، لكن المشكلة تحدث حين نقصي الجوانب الأخرى ونعزلها لإحلال تصوّر مركزي، لأنّ "فرض هوية فريدة زعماً هو غالباً أحد المكونات الحاسمة من العنف القتالي لإثارة المواجهات الطائفية"⁽⁴⁾، أو العرقية.

تشكّل التصور حول الهوية:

يمكن رصد ثلاثة أنماط أو مراحل أطرت التفكير السائد حول الهوية ولازالت تتجاذب الوعي الإنساني بها

أ- الهوية كمعطى ماورائي:

ارتبط مفهوم الهوية عند الأمم القديمة بهيكل تراتبي شكّل فيه الإله القمة لتأتي منزلة الملوك ثم الجماعات البشرية الأقل أهمية لاحقاً لذا لم يكن للأفراد أي تميز على صعيد الهوية الخاصة "وإنّما هم جزء من سلسلة طويلة للوجود"⁽⁵⁾، ما جعلها أمراً حتمياً لا مجال للاختيار فيه خاصة إذا علمنا أن البعد الديني قد مثل المصدر الوحيد لها غالباً.

ب- الهوية موضوعاً للتنبؤ:

لقد أحدث عصر الأنوار انقلاباً جذرياً في النظام التراتبي للعالم إذ صار الفرد يشكل المركز القادر على فهم وتفسير وكذا توجيه ما حوله دون الخضوع لسلطة خارج ذاته سواء كانت

3- أمارتيا صن: الهوية والعنف وهم المصير الحتمي، تر: سحر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 2008، ص9.
4- هرلييس وهولبرن: سوسولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر، ط1، سوريا، 2010، ص95.

العقيدة أو المجتمع، وفي هذا الصدد برزت مفاهيم إنسانية ارتبطت بشكل مباشر باتساع دائرة العقلانية والعلمانية. يرى ستوارت هول أنّ المفهوم الجديد للهوية له خاصيتان، تتمثل الأولى في أنّ لكل فرد هويته الموحدة التي لا يمكن تجزئتها، أما الثانية فمفادها أنّ هوية كل فرد هي هوية متميزة⁽⁶⁾، لكن مع تطور المجتمعات أخذت المفاهيم حول الهوية الفردية تتغير ويعاد تشكيلها خاصة مع بداية الثورة الصناعية وتراجع مكانة الفرد أمام الهياكل الأخرى، حتى أصبحت هويته مرتبطة بالطبقة الاجتماعية أو أصوله العرقية أو الدينيّة ومن هنا برزت الهوية الثقافية بوصفها تصورا لحالة الثقافة الجمعيّة التي تصدر عن جماعة يربطها عامل الانتماء.

ج- الهوية موضوعاً لما بعد الحداثة:

تحت تأثير العولمة وسرعة التغيير الذي يشهده العالم اليوم بفعل سياسات التسويق والاستهلاك ارتفعت نسبة التحانس بين بني البشر، ما أضعف الهويات القائمة على الانتماء لمجموعات اجتماعية معيّنة، إذ عرفت الهوية نوعاً من التشظي نتيجة انصراف الاهتمام إلى قضايا غير الطبقة، بظهور حركات مهمة بقضايا مثل الحركات النسوية وصراع السود، فما عاد الناس يشعرون بكونهم جزءاً من طبقة واحدة بل أصبحت هويتهم مجزأة طبقاً لجنسهم أو عملهم أو اهتماماتهم، ما جعل بعض الباحثين يقرون بأنّ الهوية خلال هذه المرحلة أصبحت مسألة اختيار قصير المدى، ففي عالم ما بعد الحداثة "أصبح هناك معنى للتحوّل من هوية إلى أخرى دون الاستقرار في أي منها، إنّ مجتمع ما بعد الحداثة جعل إمكانية الاستقرار بالغة الصعوبة"⁽⁷⁾. يرى علي حرب أنّ هذه التصورات أو التقسيمات تحضر في العالم العربي وفق ما يسميه "الثوث الأسلمة (الأصولية) والأنسنة والعولمة".

فإذا كانت الأولى تمثل فهماً ارتجاعياً للهوية على أساس ديني ارتبط بالوضع الحضاري الضعيف للأمة، فإنّ الحداثة لم تشكّل قطيعة مع الماضي بقدر ما كانت قراءة حيّة فاعلة في ظل واقع له خصوصيته، لكن الإشكالية تتعلق دائماً بالمرحلة الثالثة ألا وهي العولمة التي ينظر إليها

⁶ - المرجع السابق، ص 96

⁷ - المرجع نفسه، ص 102.

بتوحس نتيجة الممارسات العقيمة والدفاعات الفاشلة، ما جعل خطاب الهوية العربي حافلاً بمفردات الغزو والاختراق والاكتماس والمحو⁽⁸⁾.

بناء على ما سبق نجد أنّ الهوية الثقافية ليست كياناً ثابتاً بل هي نظام من القيم والتصورات التي تتشكّل على نحو مستمر من خلال ما تشهده من تفاعلات داخلية وخارجية للجماعات عبر مسارها التاريخي، لذا ينبغي أن يعاد النظر في مكوناتها من خلال ممارسة النقد الذاتي، خاصة خلال الفترات التي تعرف تنامي الأزمات.

العديدية الثقافية ودورها في تشكيل الذات الجزائرية-دراسة في نماذج روائية:

سأحاول في الأوراق المتبقية رصد تمثيلات الهوية في الرواية الجزائرية بشكل يمكننا من فهم طبيعتها المتعددة من الناحية، وارتباطها بسياقات تاريخية واجتماعية معينة من ناحية أخرى.

1/ الجذور الأمازيغية للذات الجزائرية (دراسة في رواية ابن الفقير لمولود فرعون):

جسدت رواية ابن الفقير لمولود فرعون (الصادرة سنة 1950م) معاناة الأسرة الجزائرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي نتيجة التهميش والعزلة، مصورة كفاحها اليومي من أجل تأمين لقمة العيش، كتبها خلال سنة 1939 وتمحورت أحداثها حول شخصية "فورولو منراد" الذي راهن على قيم الثقافة الفرنسية وسعى لتغيير مصيره من خلال إيمانه الراسخ بأهمية التعليم، وهي شخصية تتماهى إلى حد بعيد مع شخصية الكاتب ما يجعلنا نعتبر هذه الرواية أقرب إلى السيرة الذاتية.

يبرز الكاتب ومنذ البداية دور الثقافة الفرنسية في صقل شخصية البطل وتنمية رغبته في الكتابة التي يراها وسيلة للانعتاق من واقعه المزري، حيث نجد ينكب على مطالعة مؤلفات العديد من الكتاب الفرنسيين البارزين من أمثال جان جاك روسو وألفونس دودي أملاً في مضاهاتهم، لكنه سرعان ما يدرك استحالة تحقيق ذلك بقوله "إنّما فكرة حمقاء أن يحلم المرء بمشاهدة هؤلاء"، لقد كان هاجسه يتمحور حول تشكيل صورة للذات تتماهى مع صورة الآخر

7- علي حرب: حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص21.

الأوروبي بوصفها النموذج، لكن وضعه الاجتماعي مثل عائقاً حال دون تحقق هذا الحلم، لذا آثر أن يقنع بما هو عليه "معلم في قرية نائية".

يكتب مولود فرعون باللغة الفرنسية وبأسلوب كلاسيكي عن طفولته في قلب منطقة القبائل، إذ تحضر كل تفاصيل المكان، من خلال وصف دقيق لنمط الحياة في قرية تيزي ذات البيوت المتراسة والمسالك الضيقة، وكذا العلاقات الأسرية والاجتماعية المتينة، لكن ولعه برسم تفاصيل المكان لم يمنعه من تقديم نقده أو تحفظاته على بعض الممارسات التقليدية، إذ يبدي استغرابه من قصة الحرز الذي يقي من الجن⁽⁹⁾.

قسم مولود فرعون الرواية إلى قسمين، يتولى البطل سرد الأحداث الخاصة بالقسم الأول تحت عنوان "الأسرة"، أين يحضر فضاء المجتمع التقليدي المتمسك بالتراث والقيم المتوارثة عن الأجداد، نتعرف خلاله على وضعية المرأة في المجتمع القبائلي، والعادات المتعلقة بالزواج والميراث و ذلك من خلال الإشارة إلى حرمان الأم وأخواتها من حقهن في ما تركه الجد، إذ يقول "عندما وصلت الوثيقة إلى الشيخ الذي تولى ترجمتها شرح للوراثات أنه لا حق لمن سوى الانتفاع، ربما لم يفهم القاضي جيداً رغبات المتوفى فسجل رغبات إخوته فقط"⁽¹⁰⁾، كما يقدم وصفاً للظروف الاقتصادية الصعبة التي جعلت تحصيل القوت اليومي غاية في الصعوبة، ما دفع الكثير من الآباء إلى الهجرة رغبة في تحسين وضع أسرهم، فمن خلال رسائل الأب نتعرف على جانب من معاناة المهاجرين وأسرهم.

أما القسم الثاني فجاء بعنوان "الابن الكبير" حيث تولى الراوي هذه المرة سرد الأحداث التي جرت في فضاء مختلف هو المدرسة، التي مثلت بالنسبة للبطل نافذة الانفتاح على الحلم، وسبيل تغيير مصيره الحتمي، فوحده التعليم من سيحول دون أن يصير راعي غنم كبقية أقرانه، ورغم كل الظروف المثبطة يتمسك فورولو بخيط الأمل عازماً على تحقيق النجاح ودخول مدرسة المعلمين، دون أن يعني ذلك انفصاله عن واقعه ورغبته في التماهي مع الآخر، إذ يظل همّ الجماعة مسيطراً على الكاتب، ولنا أن نستحضر في هذا الصدد مقولته الشهيرة "أكتب بالفرنسية وأتكلم بالفرنسية لأقول للفرنسيين أئي لست فرنسيًا".

⁹ - مولود فرعون: ابن الفقير، تر: سيد أحمد طرابلسي، دار ثلاثيقيات للنشر، الجزائر، 2004، ص 135.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص 27.

يعكس الارتباط بالأرض والتأكيد على طابعها الأمازيغي رغبة الكاتب في إثبات هويته المتميزة عن المستعمر، هوية متحذرة في كل تفاصيل الحياة، يتجلى ذلك من خلال الانتساب إلى الجد إذ تفقد الأسماء الشخصية قيمتها الدلالية أمام سطوة السلف، يقول الكاتب "عمي يسمى لونيس وأبي رمضان لكن في الحي اعتاد الناس أن يناديهما ابني شعبان لا أدري لماذا لقد تيتما مبكرا حتى أنّ أبي لم يعرف أبداً جدي" (11).

ليس هذا فحسب بل يشير الكاتب إلى أنّ "الجماعات" تحظى بقُدسية أكبر من المساجد في المجتمع القبائلي، وهي عبارة عن مجموعة من أعيان الحي، تدير شؤونه وتفصل في الخلافات وفق الأعراف المتوارثة عن الأجداد، ولطالما كانت مقاومة للسلطة الاستعمارية .

يخضّر التراث الأمازيغي في جانب آخر من خلال توظيف الكاتب للعديد من الأمثال والألفاظ الأمازيغية ما يعكس رغبته في تخليد هذا البعد من أبعاد الهوية الثقافية، من ذلك قوله "إنّنا جيران للعيش في الجنة لا للعيش في الخصومة هذا أجمل أمثلتنا"، "جدي كانت لدى آل منراد هي التي تشرف على المؤن هي الوحيدة التي تفتح وتغلق إيكوفان"، "وُلدت في عام البركة 1912 يومين قبل إغارة تباري الشهيرة الذي في سالف الأيّام حسب الأسطورة قتل ومزق عجوزا على قمم جرجرة (...). قرّرت جدي أن تدعوني فورولو مأخوذ من أيفر، مخفي"، "إركاسن"، "إيزيم"، "أكوفي"... وغيرها .

قدّمت رواية ابن الفقير صورة واضحة عن جزائر تختلف عن تلك التي تدّعي فرنسا أنّها جزائر فرنسيّة، حيث أتاحت للمتلقي آنذاك رؤية الحقيقة من أبعادها المعيّبة، أين يحظى الارتباط بالعرق والتقاليد بأهميّة بالغة في تحديد معالم الذات تصل درجة التقديس، في ظل مجتمع محافظ، ما يجعلنا نقول بأنّ مفهوم الهوية من خلال هذا العمل يتجلى من خلال تأكيد التماثل مع الجماعة الضيقة (عرقاً ولغة و تقاليداً)، إذ لم يكن الأوان قد حان بعد لتبلور فكرة الهوية الوطنيّة.

2/ بواذر الوعي بالهوية الوطنيّة(رواية نجمة ووصيف الأزهار لا يجيب أنموذجا):

¹¹ - المرجع السابق، ص 23.

اختار كاتب ياسين "نجمة" عنواناً بالعربية لروايته الصادرة باللغة الفرنسية سنة 1956 وهو خيار متعمد على عكس اسمه العائلي الذي يبدو وكأنه هو من اختاره أو لنقل هو القدر وغرائبيته من جعله وصياً ومنقداً لهوية شعبه.

ليس غريباً أن تفتتح الرواية بعبارة "لخضر يفر من ززانته"⁽¹²⁾، وتنتهي بالسياق ذاته ذلك أنّ شرط التحرر ملازم للكتابة سواء حقيقياً أو رمزياً فضلاً عن أنّ العبارة تلخص وضعية شعب قدره أن يسجن في وطنه بعد أن صار غرفة اعتقال، لخضر ليس سوى الوجه الآخر للمؤلف فمن خلال استحضار تفاصيل حياته نجد أنه قد عاش تجربة السجن أثناء خروجه في مظاهرات 8 ماي 1945 وهو ما تشير إليه الرواية لاحقاً، فقد سجن قرابة شهرين وبعد خروجه وجد أنّ أمه قد جتت تحت تأثير الفرع الذي ولده احتمال أنّ ابنها قد قتل.

منذ البداية تبدو كل الدروب ضبابية في الرواية كما في الجزائر فلا هوية للجزائري المطارد، يتداخل المسار السردى وتتعدد التقنيات بين استذكار الماضي والاستباق بشكل يتطلب من القارئ تركيزاً ذهنياً راسخاً للإمساك بخيط الأحداث.

تطلب الأمر حضور أربع شخصيات حول نجمة (مراد، رشيد، مصطفى، لخضر)، تلك المرأة التي ظلت موضوعاً للرغبة واللعنة، مجالاً للحلم والحياة، أو كما يقول مصطفى في مذكراته "نجمة المرأة القدر، العاقر القدر.. طالع شؤم قبيلتها"، إنها كالزهرة السامة التي يمنع استنشاق عبيرها إذ تظل عصية عن الظفر بما نظراً للقدر الملتبس الذي جعلها اختاً محتملة لهؤلاء.

يكشف رشيد هوية نجمة من خلال التقائه بمختار (والدها) الذي عاد للبحث عنها بعد أن علم بتزويجها من طرف غرباء، فيخبره بأنها ابنة امرأة فرنسية من أصول يهودية لم تكن قادرة على الاختيار بين عشاقها من قبيلة قبلوط، فيتم قتل أحدهم بعد شجار في لحظة سكر، ليتولى زنجي لاحقاً قتل مختار ورد نجمة إلى القبيلة⁽¹³⁾ كتحصين لها، لكن مختار كان أيضاً قاتل والد رشيد، ومنذ تلك الحادثة صارت نجمة تلتحف عباءة سوداء لا يفارقها الزنجي في تنقلها بين قسنطينة وعنابة.

¹² - Kateb yacine: Nedjma, éditions du seil, France, 1996, p15 .

¹³ - Ibid. p184 .

تتماهى "نجمة" مع الوطن الذي ظل تاريخه ملتبسًا بعد أن توالت عليه النكبات وشهد توافد شعوب مختلفة حاولت مسح هويته، فمن المدن ما يماثل النساء اللواتي يعصفن كالقدر، يقول الكاتب على لسان أحد شخصوه "هذا الوطن لم يولد بعد، كثر أبأوه فما استطاع أن يولد في وضوح النهار وتوالت عليه الأجناس الطموحة الخائبة الممزوجة الملتبسة ببعضها، المكروهة على الزحف بين الأطلال، لا يهم إن كان المد والجزر يعثبان بهذا الوطن حتى اختلطت أصوله وغمضت واكتسحها عصف ذبول شعب يحتضر، في القارة التي لا تعرف الذاكرة متى نشأت فريضة ككلب الجثة بين العالم القديم والعالم الجديد"⁽¹⁴⁾.

يغوص كاتب ياسين في التاريخ السحيق للجزائر بحثًا عن الوجه الحقيقي لها من خلال التركيز على الحقبة النوميدية التي عرفت مقاومة شرسة للأعداء الوافدين، داعيًا إلى استلهاهم دروس الماضي للخروج من الكابوس الذي يمثله الاستعمار الجديد "قسطنطينة وعنابة المدينتان اللتان كانت سلطتهما تمتد على نوميديا القديمة وقد أضحت اليوم مقاطعة فرنسية لا غير، هما الروحان تناضلان من أجل استرجاع قوة النوميديين التي تراجعت يوما (...). كما لو أنّ رهان الزمن الماضي الامتحان الوحيد الذي على أبطال اليوم أن يجتازوه".

وتأكيدا على طابع المقاومة الممتد الجذور، وعلى هوية الجزائر الضاربة في القدم، يستحضر الكاتب أمجاد قرطاج وهيونا وسيرتا التي يحاول الفرنسيون طمسها باعتبارهم أحفاد الرومان، فالغزاة لا يحملون لهذه الأرض حبا ولا عهدًا.

تعكس شخصيات الرواية الوجه الحقيقي للجزائر المستعمرة، إذ يعد التمرد سمة مشتركة بينها في كثير من الأحيان، وإن أخذ أبعادًا مختلفة، لكنها تنزلق إلى الهاوية حين تختار حياة السكر والعريضة ملاذًا أو مهرّبًا من واقع شديد القتامة، فرفضها الخضوع صفة متأصلة في المنطقة التي تنحدر منها "الناصور" والتي ظلت أبنية عصبية عن الانقياد للمستعمر، لذا قرّر معاقبتها بقتل أبرز قادتها وتشثيت البقية بفعل الخوف والزواج المختلط وكذا تنصيب أبناء هؤلاء الزعماء "قياد" كأسلوب يهدف لتدنيس ماضيهم.

إنّ الجزائر في نظر الكاتب نجمة غاب عنها بريقها بفعل التشويه الذي أحدثه المستعمر في بنيتها العميقة، فإرضًا سياسة تقوم على تجهيل الشعب وحرمانه من أبسط حقوقه،

ليظل وجوده هامشيًا مقارنة بالفرنسي الذي فرض نفسه سيدًا على أهل هذه الأرض، لكنها نجمة لا تنطفئ ولا سبيل لإعادة وهجها سوى بيعت الماضي من جديد، وإحياء قيم الأجداد وإعلان ثورة مستمرة على قوى الظلام، ذلك أنّ المدن التي عرفت الكثير من الحطام لا يفاجئها الغزو ولا تهزم أبدًا.

يُبرز مالك حدّاد أبعادًا أخرى لتشكّل الوعي بالهويّة الوطنيّة، من خلال رصد التصدعات التي ولّدها في العلاقات بين المثقفين الجزائريين والفرنسيين "أهالي ومعمرين"، ففي روايته "رصيف الأزهار لا يجيب" الصادرة سنة 1961 يروي الكاتب حكاية "خالد بن طوبال" المثقف الذي يعيش حالة المنفى القسري سواء على الصعيد المكاني أو اللغوي.

يبدأ المشهد باقتراب وصول القطار الذي يقل خالد إلى العاصمة الفرنسية وشعوره بالخيبة لعدم حضور صديق طفولته "سيمون" لاستقباله، ما جعل رصيف الأزهار (المكان) لا يجيب لأول مرّة في إشارة إلى نسيان سيمون لوطنه الأصلي "الجزائر" أي أنّه بشكل من الأشكال قد خان الذاكرة .

يستحضر خالد بن طوبال ذكرياته في قسنطينة، تلك المدينة التي تمثّل له الملاذ في منفاه، وحلقة الوصل بالوطن وتاريخه، إذ يتذكر التقاءه بسيمون لأول مرّة، وكيف جمعتهما مقاعد الدراسة صدفه لتلقي أفكار برغسون وديكارت والتنكر للشيخ ابن باديس ولشعراء الجزائر "هؤلاء الذين لا دين لهم ولا لغة"⁽¹⁵⁾.

يشير الكاتب ومنذ الوهلة الأولى إلى إشكاليّة الهوية في جزائر مستعمرة، جردها المحتل من كل مقوماتها التي تحفظ تفردا وتضمن خصوصيتها، ويتجلى أحد تلك الأبعاد من خلال افتقاد الكاتب للغته القوميّة وعجزه عن الكتابة بها، لكن ذلك لم يجعله يتعايش ويتصالح مع الواقع المفروض، بل ظل متمسكًا بفكرة الوطن وقيّمًا لمبادئه، إذ يقول الكاتب "خالد بن طوبال لم يكن وقيًا إلا لطفولته، يروى عنه أنّه كان وطنيًا ربما كان هذا صحيحًا وربما كان كذبا، فالسياسة تبعث في نفسه السأم كدروس الحساب في المدرسة الابتدائية، فقد كان جزائريًا وهو إذ

15- مالك حداد: رصيف الأزهار لا يجيب، تر: ذوقان فرقوط، آفاق للكتابة، القاهرة، 1999، ص9.

يمجد مبدأ الهوية وهذا التأكيد البديهي الأبلى يحتفظ لنفسه في مخيلته بصورة الطفل الوفي لطفولته" (16).

تشتغل الرواية على عدة موضوعات لعل أبرزها فكرة الحرية، فقد آمن خالد إيماناً راسخاً بالوطن وحرية التي يرى أنّها ليست سوى مسألة وقت، وقد وُلد ذلك في نفسه يقيناً بوجود الله وليس العكس "من أجل جزائره المحبوبة ومن أجل البلدان الشبيهة بالجزائر في العالم أراد كوكباً أكثر قرباً... تلك الليلة كان خالد بن طوبال يتهيأ نفسياً للاعتقاد بالرحمن" (17).

تمثل الجزائر للبطل كأم أصابها الضر ودنّست، أمّا فرنسا فلا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون أختاً لها فلا دم مشترك بينهما وإنما هو في حالة اختلاط، يستحضر الكاتب هذه التصورات خلال الحوار الذي دار بين مونيكا (زوجة سيمون) وخالد بن طوبال أثناء استعداده لركوب القطار لمغادرة باريس تلك المدينة التي لا يحب، وما مكوثه بها إلاّ لأته كان له فيها أصدقاء، يقول الكاتب على لسان بطله "لكني أنا خالد بن طوبال رجل الصدق والمكانة الصغيرة أريد أن تشم أمي أزهار البرتقال كما تشم أمك أزهار الخزامة، وأن تكون أمي سيدة، سيدة في مطبخها تماماً مثلما تكون أمك في مطبخها"، فإيمان الكاتب بحق الجزائر في السيادة والحرية لا يمنعه من أن يُكِنّ محبة لفرنسا شرط ألاّ تفرض نفسها وصية على وطنه.

تبدو الحرب الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى النهاية التي ينشدها الكاتب، فكل الدروب تتقاطع معها إيداناً بميلاد غد مشرق، يجي الأمل بوطن حر "سيتركون الدار نظيفة وسيرحلون" عبارة لظالمها كررتها شخصية خالد بن طوبال الذي يحلم بمستقبل لا مكان فيه للوحوش الغرائب، يمكن فيه للطفل أن يجي دون أن يشعر بالجوع والبرد والخوف.

للمرأة حضور مكثف في الرواية عبر نموذجين مختلفين في الانتماء لكنهما تشتركان في فعل الخيانة، الأولى هي وريدة زوجة خالد بن طوبال وأم أولاده، المرأة الوحيدة التي ظل وفيّاً لها فقد كانت سبباً آخر لتفاوله ذلك أنّ وجودها يعيد للمكان نضارته، لكنها اقترفت بحقه وبحق الوطن جريمة لا تغتفر، لقد خانته مع ضابط مظلي فرنسي بعد أن أكدت اعتقادها بإمكانية قيام جزائر فرنسية، يرد هذا الخبر في جريدة منحتهها له مونيكا ويشير في نهايته إلى أنّ المرأة قد

16 - المرجع السابق، ص 35.

17 - المرجع نفسه، ص 143.

قطعت علاقتها بزوجها خالد بن طوبال " الكاتب صاحب الاسم المستعار الذي ما يزال الافتقار إلى السلطة يسمح له بالتعبير"⁽¹⁸⁾، الأمر الذي يقوده إلى الانتحار بإلقاء نفسه من القطار. أما المرأة الثانية فهي مونيك زوجة صديقه سيمون، فقد أبدت تعلقها به منذ اللقاء الأول وحاولت استدراجه، لكن كل أساليبها باءت بالفشل، إلا أنّها بالمقابل أسهمت في تصدّع علاقة الصداقة، فسيمون كان يشعر بما يحدث حوله، ما دفع خالد إلى اتخاذ قرار الرحيل، ونلاحظ في هذا المستوى أن العلاقة بالمرأة الأجنبية في هذه الرواية قد خالفت الصورة النمطية السائدة في الرواية المغربية عموماً والتي تجعل منها موضوعاً للرغبة والانبهار من طرف شخصية البطل (الرجل).

يتحوّل سيمون إلى "آخر" مختلف بعد أن كان ينتمي في تصور البطل إلى مجال الوطن الواحد، ما يوحي بأنّ معالم الهوية قد اختلفت وتغيرت محدداتها، إذ تراجع الانتماء الجغرافي تاركاً المجال لوحدة الدم والتاريخ المشترك لتعيد توجيهها.

أكد مالك حدّاد في روايته على أنّ الوطن قادر على أن يبعث من جديد بدماء أبنائه، قضيه آمن بما وسعي لنصرتها بقلمه، فلا مكان لمن يخون الجزائر ويغض الطرف عن جرائم المستعمر، ويبقى استرجاع السيادة شرطاً لإحياء قيم المحبة والشرف والحرية إيداً بميلاد الهوية الجزائرية .

3/ التراث الأندلسي بوصفه مكوناً من مكونات الشخصية الجزائرية:

تتسم الهوية الثقافية للشخصية الجزائرية بالثراء والتعدد، إذ تمتد من موروث ضارب في القدم أسهمت الظروف التاريخية المختلفة في تشكيله وامتداده، من خلال امتزاج الأعراق والثقافات المختلفة التي تقاطعت فيما بينها مشكلة لوحة بانورامية متعددة الألوان.

يرز المكون الأندلسي بوصفه أحد أعمدة الثقافة الجزائرية، فنظراً للقرب الجغرافي بين الجزائر والأندلس، فضلاً عن الهجرات المتكررة للأندلسيين نحو السواحل الجزائرية أثناء فترة محاكم التفتيش، استقرت العديد من الأسر الأندلسية في المدن الجزائرية ما أدى إلى انصهارها مع باقي مكونات المجتمع الجزائري.

¹⁸ - المرجع السابق، ص152.

يعد واسيني الأعرج من أبرز الكتاب الجزائريين الذين سعوا لاستثمار هذا المعطى في أعماله الروائية من خلال معالجة قضايا معاصرة بحس تاريخي، ففي رواية "البيت الأندلسي" يروي الكاتب على لسان أبطاله قصة بيت قلم شيده أحد المورسكيين الفارين من محاكم التفتيش "غاليلو الروخو" وفق الطراز الأندلسي، إذ بقي شاهداً على الحقب المختلفة التي مرّت بها الجزائر، فقد توافد عليه النبلاء واللصوص، الأخيار والفاقدون، الثوار والخونة... لتقرر السلطة السياسية ممثلة في البلدية لاحقاً هدمه واستبداله ببرج عملاق، يحمل اسم الأندلس، في إشارة إلى سعي أصحاب المال الفاسد نحو الذاكرة، لكن "مراد باسطا" القائم على البيت يظل عقبة أمام تحقيق مراميه، وتبقى المخطوطة التي مجوزته دليلاً خالداً على حقه فيه، ورمزاً للحضارة التي عاشها أجداده.

يستحضر الكاتب جانباً تاريخياً يتعلق بحياة الأندلسيين خلال فترة محاكم التفتيش، حيث توخّد مصير المسلمين منهم واليهود في مواجهة مختلف أشكال الظلم والاضطهاد والتي انتهت بطردهم إيداناً بانقضاء عصر ذهبي للتعايش السلمي، لتتحول الجزائر إلى فضاء للجوء، تلاشت فيه كل الاختلافات بين الأديان، لتبقى معالم المكان شاهدة على روح التسامح السائدة آنذاك، ففيها شيّد غاليلو قصرًا لحبيته حنا سلطانة (اليهودية)، كما دشنت مقبرة ميرامار التي اتمحت فيها كل معالم الأديان⁽¹⁹⁾.

تعتبر شخصية غاليلو الركيّة التي اعتمدها الكاتب لتشكيل الجانب التاريخي في الرواية، إذ أتاح له التعمق في رسم تفاصيلها الولوج إلى عالم سارفتس الذي يحضر بكثافة في معظم أعماله، حيث يشير إلى أن غاليلو وبعد أن استقر بالجزائر اشتغل في الصياغة عند صائغ يهودي يدعى "ميمون البلنسي"، ولما وقعت مجموعة من الإسبان في أسر العثمانيين، طلب منه أن يشتغل مترجماً ووسيطاً بينهم، ما أتاح له التعرف أكثر على شخصية سرفانتس.

في حين مثل مراد بسطا الشخص الذي يحافظ على تراث أجداده المورسكيين، والعين التي رصد الكاتب من خلالها التحولات التي طرأت على البيت الأندلسي عبر الحقب المختلفة، لكن البيت في حد ذاته لم يكن سوى صورة مصغرة عن الجزائر، والتشويه الذي لحقها من طرف أبنائها بعد أن تنكروا لتراثها وماضيها.

¹⁹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، منشورات الجمل، ط1، بيروت، 2010، ص13.

تستعين الرواية بالتراث الأندلسي من خلال تقسيم أجزاءها تقسيماً موسيقياً، وقد تجلّى ذلك عبر العناوين بدءاً بالاستخبار والتوشية والنوبة وغيرها، في تأكيد على تغلغل هذا المكون في الذات الجزائرية، ولا يكتفي الكاتب بذكرها بل يضمن العمل هوامش شارحة لكل مصطلح رغبة منه في التعريف بهذا التراث الخالد ودفع المتلقي إلى البحث والاطلاع.

4/ القراءة النقدية للتراث الديني خلال العشريّة السوداء:

صدرت رواية " بعيدا عن المدينة " لآسيا جبار سنة 1991 كقراءة للوضع السياسي الذي عايشته الجزائر آنذاك أي ما يصطلح على تسميته بالعشريّة السوداء، حيث مثل صعود التيار الإسلامي المتطرف حدثاً غير مسبوق في تاريخ الجزائر الحديث. فتحت تأثير الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عرفتها الجزائر في هذه الحقبة خرج الشعب في مظاهرات شعبية حاشدة احتجاجا على ما آلت إليه أوضاعه الاجتماعية، إلا أنه قوبل بأعمال عنف وقمع من طرف النظام أسفرت عن سقوط العديد من القتلى في ما يعرف بأحداث أكتوبر 1988.

في هذه اللحظة من التاريخ برز الإسلاميون طرفاً معارضاً للنظام، مقترحاً نفسه بديلاً أمثلاً، فقد قدّم هؤلاء تصوراً حول إسلام أحادي الرؤيا، خدمة لمشروعهم السياسي، يستند بالدرجة الأولى إلى الالتزام بحرفية النص الديني كمنطلق أساسي لقراءة الواقع وإعادة صناعته، وبذلك يمكننا توصيفه بأنه إسلام " تقليدي".

لقد تمحور اهتمام الإسلاميين خلال هذه الفترة في إعادة توجيه الهوية من خلال اكتشاف البعد الديني وجعله المحدد الأبرز لها، وقد أصبح الاعتماد على هذا التصور تكريساً لمفهوم الانعزال والانسلاخ عن باقي المكونات الاجتماعية، ما أدى إلى تفاقم الوضع.

سعت آسيا جبار بالاستناد إلى الحس النقدي والمعرفة التاريخية المعمّقة، ذات المرجعية الأكاديمية إلى إزالة هذا التصور إبداعياً، في محاولة منها لإعادة قراءة التاريخ الإسلامي، خاصة فيما يتعلق بقضايا المرأة، إذ رأت أنّ حضورها في كتب المؤرخين كان هامشياً نتيجة الأنساق الموجهة لخطاباتهم، لذا نجدتها توسّع من دائرة الهامشي في نصها الروائي لتجعل منه متناً مستقلاً بذاته، في مقابل المتن التاريخي الذي يتحوّل إلى هامش في الرواية، وبذلك تسلّط الضوء على الدور الحقيقي الذي لعبته المرأة في التاريخ الإسلامي وتعيد قراءة الكثير من المعطيات برؤيا تفتح

على فضاء الممكن وتأتى عن التقيّد بحدود الواقع، فهي تصوّر لنا التاريخ لا كما هو كائن، بل كما ينبغي له أن يكون .

من أبرز القضايا التي عاجتها الرواية ما تعلق بالوصاية وتعدد الزوجات وكذا النشاط السياسي، إذ ردّت الكتابة فعل الوصاية إلى الجذور الجاهلية نافية أن يكون الإسلام قد دعا لحبس المرأة في فضاء مغلق مستحضرة العديد من النماذج⁽²⁰⁾، أمّا ما يتعلق بالنشاط السياسي فتجربة فاطمة وعائشة رضي الله عنهما كقيلة بإثبات الدور الفاعل للنساء خلال فترة الأزمات .

تدين الكتابة الخطاب الديني الأصولي الذي حاول حصر الهوية الجزائرية داخل صناديق مغلقة، ممارسة دور الحارس والمدافع عن القيم الدينية المفترضة، انطلاقاً من تصور ما ورائي، وقراءة حرفية للنصوص الدينية، وعن هذه النظرة يقول علي حرب في كتابه حديث النهايات "ثمة نرجسية عقائدية تطفى على طريقة ممارستنا لهويتنا تزيّن لنا الدعوة إلى أنسنة العالم وإنقاذ الكون من خلال النظرة الإسلامية أو الشريعة الدينية، فيما الواقع أننا نملك إرثاً من التصورات والنماذج والأحكام والتقاليد تعجز بسببها أنسنة العلاقات داخل مجتمعاتنا بين الطوائف والمذاهب القديمة (...). فضلاً عن العجز عن أنسنة العلاقات بين الحاكمين والمحكومين"⁽²¹⁾.

تمارس آسيا جبار دور المثقف العضوي حين تفكك الأطر التي بنى عليها الإسلاميون تصوراتهم حول الإسلام والهوية الدينية التي حاولوا فرضها عنوة على المجتمع الجزائري، رافضة أن تكون هذه التصورات محط إجماع، بل هي صناعة بشرية يراد لها أن تبرز كحقيقة مطلقة، ينقسم المجتمع بفعلها إلى جبهتين "نحن" و"هم" في علاقة تمايز وإقصاء دائم، تذكبه فكرة الصراع المتأجج على المدى البعيد، لذا فإن المقاربة النقدية لمفهوم الهوية تشكل ضرورة ملحة في ظل الأزمات التي تترص بالمجتمعات.

نخلص من هذه الدراسة التي حاولنا من خلالها الغوص في عالم الرواية الجزائرية عبر استحضار بعض نماذجها البارزة خلال محطات تاريخية مختلفة، إلى أن الهوية الثقافية الجزائرية متعددة الأبعاد والانتماءات وقد تمثلها الكتاب وفق أنماط مختلفة ارتبطت بالسياقات التاريخية التي مرّت بها الجزائر، إذ تراوحت بين التركيز على البعد العرقي المناطقي أحياناً نظراً لعدم تشكل

²⁰ - Assia djebar : Loin de médine, albin michel, France, 1991, p167.

²¹ - علي حرب، حديث النهايات، ص23.

الوعي الكافي بمهوية وطنية موحدة، لكن ذلك لم ينطلق من تصور إقصائي للمكونات الأخرى، في حين أنّ فترة الخمسينات قد عرفت نضجاً أعمق في التعامل مع مسألة الهوية الوطنية، وقد أسهم الوعي السياسي بضرورة الثورة على المستعمر في بلورة رؤيا أكثر وضوحاً فيما يخص العلاقة بين الأنا والآخر، أمّا خلال فترة ما بعد الاستقلال فقد سعى بعض الكتاب إلى إبراز الثراء الثقافي للشخصية الجزائرية من خلال بعث التراث الأندلسي واستثماره في معالجة قضايا راهنة، في حين أن أخطر مرحلة مرّت بها الهوية الجزائرية قد تمثّلت في صعود التيار الإسلامي ومحاولته إقصاء بقية المكونات الأخرى، الأمر الذي دفع الكثير من الأدباء لتقدم قراءة نقدية لمفهوم الهوية والتنبيه إلى خطورة التصورات القائمة على تعميق إحساسنا بوجود هوية انفرادية حتمية انجزالية.

قائمة المصادر والمراجع:

أ/ المصادر:

- 1- الأعرح (واسيني)، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، ط1، بيروت، 2010.
- 2- حداد (مالك)، رصيف الأزهار لا يجيب، تر: ذوقان قرقوط، آفاق للكتابة، القاهرة، 1999.
- 3- فرعون (مولود)، ابن الفقير، تر: سيد أحمد طرابلسي، دار تلاتيقيت للنشر، الجزائر، 2004.
- 4- Djebar (assia), loin de médine, albin michel, France, 1991.
- 5- Kateb (yacine), nedjma, éditions du seil, France, 1996.

ب/ المراجع:

- 6- وهولبرن (هرلبس)، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر، ط1، سوريا، 2010.
- 7- حرب (علي)، حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، 2000.
- 8- ميكشيللي (اليكس)، الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق، 1993.
- 9- صن (أمارتيا)، الهوية والعنف وهم المصير الحتمي، تر: سحر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 2008.
- 10- Calaude (jean), Borbalan (ruano), l'identité l'individu le groupe la société, édition sciences humaines, France, 1998.